نصوص مختارة

من كتابات الفلاسفة والمؤرخين فى « التاريخ »

النص الأول

نظرة فى التاريخ العام بالمعنى العالمى

لامانول كنت

مهما يكن من شأن الفكرة التى لدى المرء عن « حرية الارادة » بالمعنى الميتافيزيقى ، فان مظاهرها فى الأفعال الانسانية انما تتحدد وفقا لقوانين طبيعية عامة ، شأنها شأن أية ظاهرة أخرى من ظواهر الطبيعة . وان التاريخ — وموضوعه هو سرد هذه الظواهر أيًّا ما كان خفاء عللها — ليأمل ، وهو بسبيل البحث فى الدور الذى تقوم به حرية الارادة الانسانية عامة ، أن يكشف عن وجود نظام واطراد فى مسلكها ؛ فما قد يبدو للعيان فى الأفراد أنه مضطرب لا يقوم على قاعدة يمكن مع ذلك أن ينظر اليه من جهة النوع على أساس أنه يسير على هيئة تطور — مستمر دائما،

(*) دعانى إلى كتابة هـــذا الإيضاح موضع من بين الاشارات القليلة فى العدد الثانى عشر من مجلة جوتا Gothaische Gel. Zeit. L.J. وهى إشارات مأخوذة من غير شك من محادثاتى مع أحد العلماء فى أثناء مرورهم (بتلك البلاد ، جوتا) ؛ وبدون هذا الإيضاح لن يفهم لذلك الموضع معنى (المؤلف) . [وهذا المقال كتبه كنت سنة ١٧٨٤ ، وترجمناه عن المجلد الثامن من مجموع مؤلفات كنت بالألمانية **Kant's Werlke** برلين وليبتسك سنة ١٩٢٣ عند الناشر فلتر دى جرويتر **Walter de Gruyter** ، وهذه النشرة هى نشرة الاكاديمية البروسية الملكية للعلوم .]

وان كان بطيئا — للاستعدادات الأصلية لأولئك الأفراد . أجل ، قد يبدو الزواج وما ينشأ عنه من ميلاد وموت — مما لحرية الارادة فيه عند الناس أوفر نصيب — غير خاضعة لقاعدة يستطيع المرء وفقا لها أن يقدر مقدما عددها بالحساب ، بيد أن الاحصاءات السنوية لهذه الأمور فى الدول الكبرى تدل مع ذلك على أنها تجرى وفقا لقوانين طبيعية مطردة ، مثلها مثل الأحوال الجوية : لا يسع المرء تحديد حدوثها مقدما فى جزئياتها ، لكنها فى مجموعها لا تتخلف عن المحافظة على نمو النبات وجريان الأنهار وما اليها من مرافق طبيعية على نحو فيه اتصال وفيه انتظام . وان قليلا من الناس ، بل شعوبا بأسرها لا يكاد يخطر ببالها أنه بينما كل منها يسلك سبيله وفق مراده وغالبا ضد مراد الآخرين ، فهو مع ذلك انما يحقق فى الواقع غرض الطبيعة المجهول لديه ويستهديه فى سلوكه عن غير شعور ، فتراه يعمل وفقا لمقتضيات لو تبينها لما احتفل لها الا فتيلا .

ولئن كان الناس فى مضطرب أعمالهم لا يسلكون بوجه عام مسلك الغريزة شأن البهائم ، كما أنهم كذلك لايصدرون فى أفعالهم عن خطة موضوعة كأنهم عقلاء ذوو نزعة عالمية ، غير أنه يلوح مع ذلك أنه من غير المستطاع اقامة تاريخ لهم تسوده خطة ثابتة واطراد (كما هى الحال بالنسبة الى النحل أو القندس) . ولا منجاة للمرء من بعض السخط حينما يشاهد أفعالهم وأحوالهم على مسرح العالم الأكبر فيجد أن تلك الحكمة المظهرية التى تتبدى فى الجزئيات والأفراد تنتهى فى جملتها الى أن تكون من نسج الحماقة والعبث الصبيانى ، بل الخسة الصبيانية وشهوة التدمير ، حتى ان المرء لا يدرى ، عند خاتمة المطاف ، ماذا عساه يكون من فكرة عن نوعنا هذا الذى طالما توهم فيه من مزايا . وهنا ليس أمام الفيلسوف — ما دام لا يستطيع أن يفترض مقدما أن ثمت ، بوجه عام ، هدفا « عقليا خاصا » يستهدفه الناس فى أعمالهم — الا أن يبحث

ما اذا كان فى وسعه أن يكتشف « هدفا للطبيعة » وغرضا فى ذلك المسلك المنافى للعقل مما هو مشاهد فى شئون بنى الانسان — وانا لنود أن نرى ما اذا كنا سنصل الى افتقاد دليل الى مثل هذا التاريخ ، ثم ندع للطبيعة من بعد أن توجد ذلك الرجل الذى يستطيع أن يصورها وفقا لهذا . أنها أتت برجل مثل كبلر أخضع المسالك الشاذة للنجوم لسلطان قوانين ثابتــة على نحو لم يكن فى الحسبان ، كما جاءت بمثل نيوتن الذى فسر هذه القوانين وفقا لعلل فى الطبيعة عامة .

النظرية الأولى

كل الاستعدادات الطبيعية لكائن ما قد هيئت على نحو من شأنه أن تتحقق كاملة ذات يوم وفقا للغرض المنشــود . والمشاهدة الخارجية والباطنة كلتاهما تؤيد هذه الحقيقة فى كل أنواع الحيوان . فالقول بوجود عضو لا يؤدى وظيفة ، أو نظام لا يحقق الغاية منه ، انما هو تناقض فى مذهب الغائية فى الطبيعة . واذا صرفنا النظر عن هذا المبدأ ، فلن نكون بعد بازاء طبيعة تسير بنظام ، بل أمام طبيعة عابثة ليس لها من غاية ، وهنالك يخلى العقــل الهادى مكانه للصــدفة الداعية الى اليأس والقنوط .

النظرية الثانيـة

لابد أن تتحقق فى الانسان (بوصفه الكائن العاقل الوحيد على ظهر البسيطة) تلك الاستعدادات الطبيعية التى تهدف الى استخدام العقل ، تتحقق كاملة فى النوع لا فى الأفراد . الا ان العقل فى كل كائن لهو القدرة على التجاوز بالقواعد والأغراض المتصلة باستعمال قواه الى ما فوق نطاق الغريزة الطبيعية ، وانه لا يعرف لمشروعاته حــدودا . بيد أنه لا يسلك سبيل الغريزة ، بل يحتاج الى القيــام بالمحاولات والممارسة

والتهذيب كيما يتقدم تدريجيا من مرتبة فى النظر الى أخرى تعلوها . ولذا كان لا مناص من أن يحيا المرء حياة مفرطة فى الطول حتى يتيسر له أن يتعلم كيف يجب أن يستخدم كل استعداداته الطبيعية أوفى استخدام ؛ أما اذا كانت الطبيعة قد قدرت لحياته زمنا قصيرا (كما هو الحاصل فعلا) ، فلعلها ، أعنى الطبيعة ، أن تكون فى حاجة الى سلسلة لا نهاية لها من ألوان النتاج التى يسلم كل منها الى الآخر تغير وجوده ، حتى ترقى ببذورها فى نوعنا الى تلك الدرجة من التطور التى تتفق مع أغراضها تمام الاتفاق . وهذه اللحظة الزمانية يجب على الأقل أن تكون فى نظر الانسان الغاية من مساعيه ، والا فان الاستعدادات الطبيعية يجب أن ينظر اليها فى معظمها على أنها عبث لا هدف له ؛ وهذا من شأنه أن يزيل كل المبادىء العملية وبالتالى تصبح الطبيعة وهى التى يجب أن تؤخذ حكمتها بمثابة مبدأ فى الحكم على سائر المنشئات — بالنسبة الى الانسان وحده متهمة بنوع من العبث الصبيانى .

النظرية الثالثة

لقد أرادت الطبيعة : أن ينتج المرء بنفسه من نفسه كل مايتجاوز نطاق التنظيم الآلى لحياته الحيوانية وألا يشارك فى أية سعادة أو كمال آخر غير ذلك الذى أوجب لنفسه بعقله وهو حر من الغريزة . ذلك أن الطبيعة لا تفعل شيئا عبثا وليست مبذرة فى استخدام الوسائل المؤدية الى تحقيق غاياتها . فاذا كانت قد أعطت الانسان العقل وما يقوم عليه من حرية الارادة ، فذلك دليل واضح على غرضها من تدبيرها . أعنى أنه يجب ألا ينقاد بواسطة الغريزة أو أن يهذب وتهيأ أموره عن طريق المعرفة الفطرية ؛ بل عليه بالأحرى أن يصدر فى كل شىء عن نفسه . فاكتشافه وسائل غذائه وملبسه وأمنه الخارجى وحمايته (التى من أجلها لم تعطه قرونا كالثور ، أو مخالب كالأسد أو أنيابا كالكلاب ، انما أعطته

يدين فحسب) وكل متعة تجعل الحياة محتملة ، بل فطنته نفسها وكلمته وكذلك طيب نواياه يجب كلها أن تكون من عمل نفسه • ويلوح أن الطبيعة قد وقعت هنا فى أعظم شحها فقدرت زاده الحيوانى على نحو من التدقيق والتقتير وفقا لأشد الحاجات فى بدء وجوده وكأنها أرادت أن تجعل الانسان — اذا كان قد سعى ليرتفع من الفطرة الأولى الى أكبر المهارة والى الكمال الباطن لنوع التفكير وبالتالى الى السعادة (بالقدر الذى يكون به هذا ممكنا على الأرض) — نقول أن تجعل الانسان صاحب الفضل وحده ، فلا يدين به الا لنفسه ؛ وكأنما قد رأت أن تقديره العقلى لنفسه أولى من توفير الهناء له • اذ فى طريق هذه الأمور الانسانية يقوم حشد من المتاعب التى تنتظر الانسان ؛ لذا يلوح أن الطبيعة لم تعمل كيما يحيا الانسان سعيدا ، بل من أجل أن يتابع أعماله حتى يصبح بفضل مسلكه جديرا بالحياة والهناء • ومن الغريب هنا مع ذلك أن الأجيال السالفة يبدو أنها تدبر أمورها من أجل الأجيال التالية كيما تهيء لها درجة تستطيع منها أن ترفع البنيان الذى تهدف اليه الطبيعة ؛ وأن المتأخرين وحدهم هم الذين سيكون من حظهم أن يسكنوا ذلك البناء الذى عملت على تشييده سلسلة طويلة من أسلافهم (دون أن يقصدوا الى هذا حقا) دون أن يستطيعوا المشاركة فى تلك السعادة التى أعدوها • لكن مهما يكن من غرابة هذا ، فانه أمر ضرورى مع ذلك مادام من المقرر أن نوعا حيوانيا لابد أن يملك عقلا وأن صنفا من الكائنات العاقلة التى ستموت كلها ولكن نوعها غير قابل للفناء — سيصل مع ذلك الى تمام تحقيق استعداداته •

النظرية الرابعة

ان الوسيلة التى تتذرع بها الطبيعة من أجل تحقيق النمو فى كل استعداداتها هى التعارض فيما بينها داخل الجماعة طالما كان هذا التعارض مؤديا

فى النهاية الى نظام قانونى • وأقصد هنا من قولى « التعارض » تلك الروح غير الاجتماعية عند الناس فى المجتمع ، أعنى القضاء على ميلهم الاجتماعى ، هذا الميل الذى يرتبط مع ذلك بمقاومة عامة يهـدد تلك الجماعة دائما بالتفرقة • وهذا الاستعداد موجود بوضوح فى الطبيعة الانسانية • فعند الانسان ميل الى الاجتماع ، لأنه يشعر بنفسه فى مثل هذه الحالة أكثر انسانية ، أعنى أوفر حظاً من نمو استعداداته بيد أن لديه مع ذلك ميلا قويا الى الاعتزال ، لأنه فى الوقت عينه يجد فى نفسه خاصية عدم الاجتماع ، أى الرغبة فى أن يوجه كل شيء وفقا لاتجاهه الخاص ، ولهذا يجد المقاومة فى كل مكان طالما يعرف عن نفسه أنه من ناحيته ذو ميل الى مقاومة الآخرين • وهذه المقاومة هى التى توقظ كل قوى الانسان ، فتحمله على قهر ميله الى البطالة ، وعلى أن يحقق لنفسه — مدفوعا بالطموح والنزعة الى التملك والسلطان — مكانة بين اخوانه الذين لعله لايحتملهم ولكنه لايستطيع مع ذلك أن يفترق عنهم • هنالك تبدأ الخطوات الأولى الحقيقية التى تنتقل بالانسانية من البداوة والسذاجة الى الحضـارة ، والحضارة انما هى القيمة الاجتماعيـة للانسان ، فتنمو المواهب شيئا فشيئا ، ويتربى الذوق ، وبالتنوير المستمر تستحيل الحالة الأوليـة الفطرية الى تكوين نوع من التفكير تتميز فيه الاستعدادات الطبيعية الساذجة بمرور الزمان الى مبادىء أخلاقية محددة ووفقا لهذا يستحيل الوفاق الاجتماعى الذى أفسدته نزعة مرضية ، نقول انه يستحيل الى كل أخلاقى • وبدون هذه النوازع غير الاجتماعية — وان كانت فى ذاتها غير محمودة — التى عنها تنشأ المقاومة التى لابد لكل أن يلقاها من جراء ادعاءاته الأنانيـة لبقيت كل المواهب كامنـة فى بذورها أبدا تحيـا حياة أشـبه ما تكون بحيـاة الرعاة الأركادية [1] . فيها الوفاق

(١) نسبة إلى أركاديا،وهى فى الأصل إقليم فى بلاد اليونان فى الجزء الأوسط من البلوبونيز كان يسكنها الرعاة وتغنى بها الشعراء الأقدمون بوصفها مقام البراءة والنعيم ؛ ولهذا اشتقت منها هذه الصفة للدلالة على مقام خيالى لرعاة أطهار يحيون حياة البراءة والنعم والطهارة • ومن هذا استعمالها هنا .

الكامل والقناعة والحب المتبادل : فيكون الناس مثلهم مثل الشاء يسرحونها للرعاء ، لايكادون يقيمون لوجودهم من الوزن أكثر مما يفعله أولئك الرعاة بالنسبة الى ماشيتهم • ولن يملأوا اذن فراغ الخليقة فيمايتصل بالغاية منها بوصفهم ذوى طبيعة عاقلة • فالحمد للطبيعة اذا على الشقاق الاجتماعى ، والعبث المتسابق المتحاسد ، والطمع النهم فى التملك بل والسلطان ! فبدونها لبقيت كل الاستعدادات الطبيعية فى الانسان راقدة لم تظفر بحظها من النماء • ان الانسان يريد الوفاق ؛ لكن الطبيعة تعرف خيرا ماهو جيد بالنسبة الى نوعه : انها تريد الشقاق • هو يريد الدعة والقناعة ؛ لكن الطبيعة تريد منه أن يخرج عن الركود والتراخى والقناعة المتبطلة كيما يلقى بنفسه فى حومة العمل والكفاح ، وفى مقابل هذا يستكشف الوسائل للنجاة من هذه الأخيرة ببراعة ومهارة • والدوافع الطبيعية لهذا ، والينابيع لعدم الوفاق الاجتماعى وللمقاومة المتصلة مما ينشأ عنه الكثير من الشر ، ولكنه يؤدى مرة أخرى الى توتر جديد فى القوى وزيادة فى نماء الاستعدادات الطبيعية ، كل هذا لعله اذن يكشف عن نظام أبدعه خالق حكيم ، وليس اذا من صنع روح خبيثة راحت تفسد عملها الرائع أو حملها الحسد على القضاء عليه •

النظرية الخامسة

المشكلة الكبرى للنوع الانسانى والتى أرغمته الطبيعة على أن يجد لها حلا هى الوصول الى تكوين مجتمع مدنى (بورجوازى) يحكمه قانون عام • ولما كان فى المجتمع وحده وفى ذلك النوع منه الذى يحقق أكبر قدر من الحرية وبالتالى تعارضا مستمرا بين أعضائه ومع ذلك أدق تعيين وتأمين لحدود تلك الحرية حتى يمكن أن تقوم الى جوار حرية الآخرين — نقول انه لما كان فيه وحده يمكن بلوغ غرض الطبيعة ، أعنى نماء كل استعداداتها ، فى الانسانية ، فان الطبيعة تريد أيضا أن تهيىء بنفسها هذا

كله كما تفعل بالنسبة الى كل أغراضها الأخرى ، فلا بد اذن من أن يكون ثمة مجتمع ترتبط فيه الحرية ، فى نطاق القوانين الخارجية الى أعلى درجة ممكنة ، بقوة لاتقهر ، أعنى دستورا كاملا عادلا للمواطنين ؛ فهذا هو أعلى واجب على الطبيعة نحو بنى الانسان ، لأن الطبيعة لاتستطيع أن تحقق سائر أغراضها من النوع الانسانى الا عن طريق حل تلك المشكلة وتحقيق ذلك المجتمع . والحاجة هى التى ترغم بنى الانسان على الانضواء تحت هذا السلطان القاهر ، والا فانهم ليطلبون الحرية المطلقة من كل قيد ، وأكبر هذه الحاجات تلك التى يحدثها بنو الانسان بعضهم لبعض مما تجعل ميولهم أنهم لايقدرون على احتمال العيش بعضهم مع بعض فى حرية وحشية . لكن فى مثل هذا الميدان من نوع هذا الاتحاد بين المواطنين تحدث هذه الميول نفسها خير الأثر من بعد : مثل ذلك مثل الأشجار فى الغابة يسعى كل منها أن يسلب الآخر الهواء والشمس ، فيحتاج كل الى السعى الى الآخر فيظفران معا عن هذا الطريق بنماء مستقيم جميل ؛ وعلى العكس من هذا تلك التى تريد أن تستقل بنفسها وحريتها عن الآخرين فتدفع بأعضائها الى طلب ماتهواه تراها تنمو نموا أعوج مضطربا عاجزا . وكل حضارة وكل فن يزين الانسانية ، وأجمل نظام اجتماعى ، هذه كلها ثمار الروح غير الاجتماعية التى تحوج نفسها بنفسها الى التهذيب وبالتالى تنمى بذور الطبيعة عن طريق الصناعة المبدعة تنمية كاملة .

النظرية السادسة

وتلك المشكلة هى فى الوقت نفسه أعقد المشاكل ولن يحلها بنو الانسان الا متأخرا . والصعوبة ، التى تضعها أمام الأنظار فكرة هذا الواجب نفسها ، هى هذه : الانسان حيوان يحتاج الى سيد طالما كان يحيا بين بنى نوعه . ذلك أنه من غير شك يسىء استخدام حريته فيما يتصل بأقرانه ؛ واذا صح أنه يريد ، بوصفه كائنا عاقلا ، قانونا يضع لحريته قيودا

وحدودا ، فان ميوله الحيوانية الأنانية تقتاده الى حيث يجب ألا يذهب . ولذا كان لابد له من سيد يكسر من غلواء ارادته الأنانية ويحوجه الى اطاعة ارادة يعترف بها الجميع وهم أحرار . لكن أنى له بهذا السيد ؟ انه لايمكن أن يكون الا من بين بنى الانسان . لكن هذا بدوره هو الآخر حيوان وبالتالى فى حاجة الى سيد . فليكن هذا السيد اذا من يكون ؛ لكن لاسبيل الى معرفة كيف يستطيع الانسان لأن يظفر بسيد أعلى للعدالة العامة يكون هو أيضا عادلا ؛ ويمكن أن يبحث عنه فى شخص واحد أو فى عدة أشخاص مختارين من جماعة . ذلك أن كلا من هؤلاء سيسىء دائما استخدام حريته اذا لم يكن ثمة أحد فوقه يحمله على الخضوع للقوانين . لكن السيد الأعلى يجب أن يكون عادلا لوجه العدالة نفسها ، وأن يكون مع هذا انسانا . ولذا فان هذه المسألة أعقد المسائل كلها ؛ ماذا أقول ! بل ان حلها على الوجه الكامل مستحيل : فمن هذا الخشب المعوج الذى من مثله صنع الانسان لايمكن أن نصنع شيئا مستقيما : فمتى يستقيم الظل والعود أعوج ! بيد أن الاقتراب من هذه الغاية قد جعلته الطبيعة من واجبنا (١) . أما أنها آخر ماينتحقق ، فهذا يتبين أيضا من هذا وهو أن الأفكار الصائبة عن طبيعة دستور ممكن تقتضى تجربة كبيرة كونتها الأجيال المتطاولة وفوق ذلك كله ارادة طيبة مستعدة لقبول تلك التجربة ؛ وهذه الشروط الثلاثة لايمكن أن تتوافر معا الا بصعوبة جدا ، وحتى اذا توافرت فلن يكون ذلك الا متأخرا جدا بعد كثير من المحاولات التى تذهب سدى .

---

(١) لهذا كان دور الإنسان إذن مصطنع كل الاصطناع ، أما ماهو حال سكان الكواكب الأخرى وطبيعتهم ، فهذا مالا تعرف عنه شيئاً ؟ لكن إذا لم نطنا بالطبيعة هذه المهمة خير إناطة فلعلنا أن نفخر بأننا خليقون بأن نعزو إلى أنفسنا مكانة غير ضئيلة بين جيراننا فى الكون ولعل أمل كل فرد من هؤلاء أن يبلغ مصيره كاملا فى حياته ، أما عندنا نحن فالأمر بخلاف هذا إذ النوع هو وحده الذى يمكنه أن يرجى هذا (المؤلف) .

النظرية السابعة

ان مشكلة ايجاد دستور للمواطنين كامل تتوقف على مشكلة « أحوال دولية خارجية » قانونية ، ولايمكن أن تحل بدون هذه الأخيرة . ماذايفيد فى العمل من أجل دستور للمواطنين قانونى بين أفراد من الناس ، أعنى من أجل نظام هيئة عامة ؟ ان الروح غير الاجتماعية التى أحوجت الناس الى هذا هى مرة أخرى العلة فى أن كل هيئة فى أحوالها الخارجية ، أعنى كدولة فى علاقاتها مع الدول الأخرى ، تعمل فى حرية مطلقة ، ويجب بالتالى أن تنتظر كل منها من الأخرى أن تصيبها بالشر الذى حمل الأفراد وأرغمهم على اصطناع وضع قانونى مدنى . ولذا فإن الطبيعة قد جعلت من عدم احتمال الناس بعضهم لبعض ، بل والجماعات الكبرى والدول التى من هذا النوع ، نقول انها جعلت من عدم الاحتمال هذا وسيلة كيما تجد فى التعارض الضرورى الوقوع بينها حالة للسلام والأمان ؛ أعنى أنها بواسطة الحروب والتسلح والاستعداد الذى لاينتهى ولا يهدأ من أجلها ؛ وبواسطة الأزمة التى لابد أن تشعر بها كل دولة باطنيا حتى فى وسط السلام ، انها بواسطة هذا كله تدفع الى محاولات تكون فى البدء ناقصة ثم تعيد فى النهاية — بعد كثير من الدمار والعثار بل ونفاذ القوى باطنيا — الى ماكان يمكن العقل أن يخبرهم به بدون هذه المحن الأليمة ، وأعنى به : أن ترتفع من حالة الفوضى القانونية والوحشية الى اتحاد بين الشعوب ، حيث كل منها حتى أصغرها تستطيع أن تؤمل فى سلامتها ونيل حقوقها عن طريق هذا الاتحاد الكبير بين الشعوب (حلف أمفكتيون Foedus Amphictyony) [1] وعن طريق قوة متحدة وقرار يصدر وفقا

(١) أمفكتيون هو ابن هيلينوس الذى كون مجلس «الأمفكيتون» المتكون من أحكم الحكماء وأفضل الفضلاء في بعض بلاد اليونان ؛ وكان يجتمع مرتين فى العام فى مدينة دلفى وأحياناً فى ترموبوليه ؛ وكان ينظر فى جميع الأمور التى قد ينشأ عنها نزاع بين مختلف الدويلات اليونانية. وكانت قراراته تعد مقدسة ولا يمكن نقضها ، بل كان يلجأ أحياناً الى السلاح لتنفيذها . وكان عدد أفراده اثنى عشر ، ثم بلغ عددهم ٣٠ فى عصر أنطونيوس بيوس .

لقوانين المشيئة المتحدة لكل الشعوب • ومهما بدا فى هذه الفكرة من خيال وأحلام حتى سخر منها بوصفها كذلك رجل مثل الأبيه دى سان بيير أو روسو (ولعل ذلك لأنهم ظنوا أنها كذلك قريبة فى التحقيق) : فان الخروج الذى لامفر منه من هذه الأزمة التى فيها أضر الناس بعضهم ببعض وأوقعوا بأنفسهم الشقاء ، هو الذى لابد أن يرغم الدول على اتخاذ هذا القرار (مهما يكن شدة وقعه عليها) الذى اضطر اليه حتى الرجل المتوحش نفسه رغما عن ارادته ، ألا وهو أن يتنازل عن حريته الوحشية وأن يبحث عن السلام والأمان فى دستور شرعى •

وعلى هذا فما الحروب الا محاولات متعددة (وان لم يكن هذا فى قصد الانسان ، انما فى قصد الطبيعة) من أجل ايجاد أحوال للدول جديدة وتكوين هيئات جديرة بالقضاء أو على الأقل بتمزيق أوصال القديمة ؛ وهذه الجديدة بدورها اما أنها لاتستطيع أن تحتفظ بنفسها فى داخل ذاتها أو بعضها الى جوار بعض مما يؤدى الى مرورها بمحنة ثورات مشابهة جديدة ، وتستمر الحال على هذا الى أن نصل — عن طريق خير تنظيم للدستور المدنى من الناحية الداخلية ثم عن طريق الاتفاق العام والتقيد من الناحية الخارجية — الى حال تشبه حال الكائن المدنى العام ، حال يمكن أن تحافظ على نفسها كأنها كائن يتحرك بنفسه •

أما هل للانسان أن ينتظر من نوع التضافر الأبيقورى للعلل الفاعلية أن الدول تحاول — مثلها مثل ذرات المادة فى اصطدامها حسبما يتفق — أن تكون كل أنواع المؤسسات التى يحطمها مصادمات جديدة حتى تصل الى تكوين مؤسسة يمكن أن تبقى بصورتها (وسيكون ذلك صدفة سعيدة لاتتحقق الا بصعوبة جدا) ، أو أن عليه بالأحرى أن يظن أن الطبيعة تسلك هاهنا سبيلا منتظما فيه يرتفع نوعنا شيئا فشيئا من المراتب الدنيا للحيوانية حتى يبلغ أعلى درجة من درجات الانسانية عن طريق فن خاص مغتصب من الانسان ، وينمى فى هذا الترتيب الذى يبدو فى

الظاهر وحشيا تلك الاستعدادات الأصلية بطريقة منتظمة ؛ أو اذا فضل الانسان ألا ينتج شيء ، أو على الأقل شيء حكيم ، من كل هذه التأثيرات وتبادل التأثيرات بين الناس فى جملتهم ، وأن يبقى الأمر كما كان من قبل ولا يستطيع الانسان أن يعرف مقدما ما اذا كان الشقاق الذى هو طبيعى فى نوعنا يهيىء لنا فى النهاية جحيما من الشرور فى مثل هذا الوضع الذى لايزال مهذبا ، نظرا الى أنه سيقضى من جديد على هذه الحالة نفسها وعلى كل ماتم حتى الآن من تقدم فى الحضارة بنوع من التدمير البربرى (وهو مصير لاقبل للانسان به تحت حكم الصدفة العمياء ، وهو بالفعل كالحرية العديمة القانون سواء بسواء ، اذا لم يخضعها المرء الى دليل من الطبيعة يتسم بالحكمة !) — وهذا يرجع تقريبا الى السؤال التالى : هل من العقل أن يؤمن الانسان بوجود غائية فى الطبيعة فى أجزائها ، وعدم غائية فى الطبيعة ككل . فما فعلته حالة المتوحشين الخالية من الهدف ، وهو أنها احتجزت كل الاستعدادات الطبيعية فى نوعنا ، ولكنها أحوجتها فى النهاية ، بما سببته من شرور ، الى الخروج من هذه الحالة والدخول فى وضع دستورى قانونى فيه تزدهر كل تلك البذور — فعلته أيضا الحرية البربرية للدول التى تم انشاؤها ، أعنى أنه باستخدام كل القوى التى للكائنات والهيئات فى اثارة الشقاق بين بعضها وبعض ، وبالدمار الذى تجره الحرب ، وقبل هذا وأكثر بضرورة البقاء فى حال استعداد من أجل هذا — عرقل نمو الاستعدادات الطبيعية فى تقدمها ، بيد أنه حدث فى مقابل هذا أن الشرور التى تنشأ عن هذا كله تحوج نوعنا الى تلمس قانون للتوازن خاص بالمقاومة — وهى فى ذاتها سليمة مفيدة — بين الدول بعضها الى جوار بعض مما ينشأ عن حريتها ، وايجاد قوة متحدة تعطى للنفس الطاقة ، وبالتالى حالة دولية للأمان الدولى العام ، ليست تخلو من كل خطر ، حتى لا تغفو قوى الانسانية ، ولكن أيضا ليس بدون مبدأ للمساواة بين الفعل ورد الفعل المتبادلين ، حتى لا يقضى كل على

الآخر . وقبل أن تتحقق هذه الخطوة الأخيرة (أعنى اتحاد الدول) ، واذن عند منتصف الطريق فى تكونها فحسب ، تتحمل الطبيعة الانسانية أقسى الشرور تحت المظهر الخادع للرفاهية الخارجية ، ولذا فان روسو لم يكن على خطأ حينما فضل حالة الفطرة والوحشية ، ما دام الانسان ينسى هذه المرحلة الأخيرة التى لا يزال أمام نوعنا أن يبلغها . اننا ندين بالدرجة العليا للفن والعلم « بالحضارة » [1] . ونحن « متمدينون » الى حد مفرط فى كل أنواع التهذيب الاجتماعى والتأنق فى آداب المعاشرة. أما أن نعد أنفسنا بهذا « كرماء الأخلاق » ، فدون هذا لا يزال أمامنا الكثير . ذلك لأن فكرة الأخلاقية تنتسب بعد الى الحضارة ؛ لكن استعمال هذه الفكرة التى تفضى الى ما يشابه الآيين فى حب الشرف والوجاهة الخارجية وحدها ، هو الذى يكون وحده التمدين . لكن طالما كانت الدول تستنفد كل قواها فى أغراض التوسع العابثة المنطوية على البطش ، وبالتالى تعوق المجهودات البطيئة للتكوين الباطن لطريقة التفكير عند المواطنين ، بل وتسلبهم كل تأييد فى هذا السبيل فلا سبيل الى ترجى شىء من هذا القبيل : لأنه لابد لهذا من عمل باطن طويل لكل هيئة عامة من أجل تهذيب مواطنيها وتنشئتهم . غير أن كل خير لا يقوم على تفكير أخلاقى خير ليس الا مجرد مظهر زائف وشقاء براق . وسيبقى النوع الانسانى حبيس هذه الحال حتى يقدر له أن يعمل جهده كما قلت من أجل الخروج من هذه الحالة العمائية للملابسات الدولية .

النظرية الثامنة

يمكن المرء أن يرى تاريخ النوع الانسانى فى مجموعة على أساس أنه تحقيق لتصميم مستور للطبيعة من أجل ايجاد دستور للدولة كامل داخليا

---

(١) لاحظ هنا التفرقة الدقيقة بين الحضارة والمدنية ، وهى التفرقة المشهورة فى الفكر الألمانى . راجع كتابينا « نيتشه » [ص ١٣٣ — ص ١٤٤ ، الطبعة الثانية القاهرة سنة ١٩٤٥] و (اشبنجلر) (فى مواضع عدة) .

و « لأجل هذا الغرض » خارجيا أيضا ، بوصفه الوضع الوحيد الذي نستطيع الطبيعة فيه أن تنمي كل استعداداتها في الانسانية تمام التنمية ، وهذه النظرية نتيجة لما تقدم . وهكذا يرى المرء أن الفلسفة يمكن أن يكون لها حلمها بمملكة الله على الأرض [1] ؛ لكنه حلم من ذلك النوع الذي يمكن من أجل تحققه أن تكون فكرته نفسها نافعة وان كان ذلك من بعيد جدا ، مما يجعله اذن حلما على كل حال . انما يتوقف الأمر على ماعسى أن تكتشفه التجربة عن شيء من مثل هذا المسلك لغرض الطبيعة. وأقول : « عن شيء من مثل هذا ... » لأن هذا المجرى يلوح أنه يقتضي قدرا من الزمان طويلا حتى يبلغ نهايته ، الى حد أنه من النذر الضئيل الذي أودعته الانسانية في هذا السبيل لايستطيع المرء أن يحدد صورة طريقها والصلة بين الأجزاء وبين الكل الا كما يحدد ، على أساس كل الأرصاد الفلكية التي تمت حتى الآن ، المسلك الذي اتخذته الشمس هي وكل الكواكب التي تدور من حولها في نظام الأجرام الثابتة الكبير ؛ وان كان له أن يثق مع ذلك ، بناء على السبب العام للتصوير التنظيمي للكون وعلى القليل الذي شاهده المرء حتى الآن ، بوجود مثل هذا المسلك أو الدورة وجودا فعليا حقا . بيد أن الطبيعة الانسانية تقتضي أنه حتى بالنسبة الى العصور المتطاولة في القدم التي وجد فيها نوعنا ليس الأمر بعديم الأهمية مادام يمكن توقعه بيقين . ويمكن أن يحدث في حالتنا هذه خصوصا على وجه أقل احتمالا بقدر مايبدو أنه كان في وسعنا وبترتيبنا العاقل أن نعجل بتحقيق هذه اللحظة السعيدة لأخلاقنا . وان البقايا الضئيلة لهذا الاقتراب (من تلك اللحظة) لعلى جانب كبير من الأهمية بالنسبة لنا . أما اليوم فان الدول قد صارت الى حال من الملابسات المصطنعة بعضها ضد بعض الى درجة أنه ليس في وسع واحدة منها أن تتوانى في الحضارة الداخلية دون أن تفقد من قوتها ونفوذها

(١) في النص Chiliasmus أي مملكة المسيح على الأرض لمدة ألف عام .

بالنسبة الى الأخرى ؛ وعلى هذا فانه حيث لايوجد التقدم ، فان الاحتفاظ بغرض الطبيعة هذا مضمون نسبيا عن طريق النوايا المتنافسة فى الطموح • وفضلا عن هذا فان الحرية المدنية لايمكن حقا المساس بها مساسا خطرا دون أن يشعر بمضار هذا فى كل المهن ، خصوصا فى التجارة ، مما ينشأ عنه انهيار فى قوى الدولة من الناحية الخارجية • لكن هذه الحرية تتقدم شيئا فشيئا • فاذا حيل بين المواطن وبين أن يسعى للظفر برفاهيته على حسب هواه وطريقته ، مما لايمكن أن يتحقق الا مع حرية الآخرين معه ، فان هذا من شأنه أن يعتاق نشاط الحركة وبالتالى قوى المجموع • ولهذا ينقضى التضييق على الأشخاص فى أحوالهم وأعمالهم ، ويطلق العنان للحرية الدينية ؛ ومن هنا تنشأ شيئا فشيئا — وبنزوة وسورة متواثبتين — نزعة التنوير بوصفها خيرا عظيما لابد أن يقتاد الجنس البشرى من النزعة الأنانية فى التوسع عند سادته ، اذا شاء أن يفهم مصلحته • وهذا التنوير ومعه أيضا نوع من المشاركة الوجدانية ، مما لا يستطيع الرجل المستنير أن يتجنب المشاركة فيه فى جانب الخير الذى يفهمه أجود الفهم ، نقول ان هذا التنوير يجب أن يصاعد شيئا فشيئا حتى يصل الى العروش فيؤثر فى مبادئها فى الحكم • وعلى الرغم من أن سادة عالمنا — مثلا — ليس لديهم حتى اليوم مال باقيا من أجل المعاهد التعليمية العامة وبالجملة من أجل كل ما يتصل بخير العالم ، لأن كل ما لديهم قدر مقدما لحساب الحرب المقبلة [١] : فانهم مع ذلك سيجدون أن مصلحتهم هم هى على الأقل — فى ألا يقفوا فى سبيل المجهودات — وان تكن ضعيفة طويلة — التى يبذلها شعبهم فى هذا الميدان • وأخيرا ستكون الحرب نفسها ليست فقط مصطنعة ، وفى نتائجها بالنسبة الى الفريقين غير مأمونة العواقب ، بل وأيضا بما سيكون لها من عقابيل وخيمة تشعر فيها الدولة بفداحة ديونها

(١) لاحظ لهجة السخرية اللاذعة فى هذه العبارة ! .

(من أجل اكتشاف جديد) ، مما لا سبيل الى الخلاص منه — نقول ان الحرب ستكون مغامرة هائلة يمتد تأثيرها فى دولة واحدة الى بقية أجزاء هذا العالم المتشابك فى مرافقه الى حد أن هذه الدول الأخرى — وقد دفعها الخطر الحائق بها ، وان كان ذلك دون وجه قانونى ، تقدم نفسها وتضعها موضع الحكم بين المتخاصمين وترى من واجبها أن تكون هيئة كبرى من الدول فى المستقبل على أكبر نطاق ، وهو مالم يطلعنا العالم فى الماضى على شىء من مثله حتى الآن . وعلى الرغم من أن هذه الهيئة الدولية لا توجد حتى الآن الا بصورة مشروع أولى جدا ، فقد بدأ يتردد فى كل الأعضاء نوع من الشعور أن على كل منها واجب السهر على الباقين ؛ وفى هذا ما يعطى الأمل بأنه بعد كثير من الثورات الاصلاحية ستحقق ذات يوم ذلك الهدف الذى استهدفته الطبيعة وجعلته أسمى أغراضها وهو بلوغ وضع دولى عام يكون بمثابة الرحم الذى ستنمو فيه كل الاستعدادات الأصلية فى النوع الانسانى .

النظرية التاسعة

يجب أن نعد القيام بمحاولة فلسفية لتصوير التاريخ العام للعالم على أساس تصميم للطبيعة يهدف الى الاتحاد المدنى الكامل فى النوع الانسانى — نقول انه يجب أن نعد هذه المحاولة ممكنة ، بل ومفيدة بالنسبة الى غرض الطبيعة هذا . أجل انه من الغريب ، بل قد يبدو من غير الصائب فى الظاهر أن نصور « التاريخ » وفقا لفكرة وهى ماذا يجب أن يسير عليه العالم اذا ما ووزن وفقا لغايات معينة عاقلة ؛ اذ يلوح أن مثل هذا الوضع لا يؤدى الا الى تأليف « قصة » . لكن اذا كان على المرء أن يقر بأن الطبيعة نفسها فى مجال الحرية الانسانية لا تعمل دون خطة وغاية مقصودة ، فان هذه الفكرة لعلها يمكن أن تكون قابلة للاستعمال ؛ وسواء كنا من قصر النظر بحيث لا نستطيع

أن نتبين سر عملها ، فيجب مع ذلك أن نستعين هذه الفكرة دليلا يهدينا الى عرض هذا الخليط غير القائم على خطة من الأعمال الانسانية فى جملتها على الأقل ، نقول أن نعرضه بطريقة تنظيمية . لأننا اذا بدأنا بالتاريخ اليونانى — بوصفه ذلك الذى يجب أن يقوم على أساسه أى تاريخ آخر أقدم منه أو عصريه [1] ، أو هذا هو ما يعتقده الناس — ، واذا تابع تأثيره فى تكوين وسوء تكوين نظام الدولة عند الرومان ، الذين ابتلعوا الدولة اليونانية ، ثم تأثير هذا الأخير (نظام الدولة عند الرومان) فى القبائل المتبربرة ، التى حطمت بدورها الدولة الرومانية ، حتى يصل الى عصرنا الحاضر ؛ بينما يضيف اليه التاريخ السياسى للشعوب الأخرى — كما عرفناه وبلغنا عن طريق تلك الأمم المستنيرة — بطريقة « عرضية » على هيئة « أحداث متناثرة » ؛ فانه يكتشف مسلكا منتظما لاصلاح نظام الدولة فى هذا الجزء من عالمنا (الذى لعله أن يشرع لبقية أجزاء العالم يوما ما) . وبالقدر الذى فيه لايحسب المرء حسابا فى كل موضع الا للدستور المدنى والقوانين الخاصة بالمواطنين وأمور الدولة ، وفقا لما أفاده هذان (الدستور وأمور الدولة) بما فيهما من خير زمنا طويلا فى ترقية شعوب (ومعها الفنون والعلوم كذلك) وتمجيدها ، بينما عملت من ناحية أخرى بما فيها من مساوىء على انهيارها ، ومع ذلك قد بقى دائما سوار من بذور التنوير كانت تنمى فى كل ثورة حتى هيأت درجة أعلى من الاصلاح : نقول انه بهذا القدر يمكن ، فيما أعتقد ، اكتشاف دليل

(١) لا يستطيع أحد أن يصدق التاريخ القديم إلا جمهور من العلماء بقى منذ البداية حتى يومنا هذا بطريقة متصلة . أما ما قبل هذا التاريخ فشىء مجهول ، وتاريخ الشعوب التى عاشت خارج ذلك التاريخ القديم (التاريخ اليونانى) لا يمكن أن يبدأ إلا منـذ اللحظة التى دخلوا فيها ذلك التاريخ القديم ، وقد حدث بالنسبة إلى اليهود فى مصر البطالمة عن طريق ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة اليونانية وبدونها لا يؤمن أحد بصدق أخبارهم المتناثرة إلا قليلا . ومنذ ذلك الحين (إذا كانت هذه البداية قد اكتشفت أولا على وجه صحيح) يمكن امرءا أن يعطى أخبارهم فصاعدا . وكذلك بالنسبة إلى سائر الشعوب . والورقة الأولى فى توكيد ديس (كما يقول هيوم) هى البداية الوحيدة لكل تاريخ صحيح .

لا يفيد فقط فى ايضاح المجال المضطرب للأمور الانسانية أو فى التنبؤ السياسى بمستقبل التغيرات فى نظم الدول (وهى فائدة استخلصها الانسان من تاريخ الانسانية كذلك ، حينما رأى فيه فعلا غير مترابط للحرية غير المقيدة بقانون !) ؛ بل وسيكون (هـذا الدليل) أيضا (وهو بألا يمكن الانسان أن يأمله بسبب قوى ، الا اذا افترض مقدما وجود خطة فى الطبيعة) عاملا على الكشف عن نظرة مواسية فى المستقبل ، يمكن فيها تصور حال النوع الانسانى فى المستقبل البعيد ، وكيف ارتفع أخيرا الى الحال التى فيها يمكن كل البذور التى أودعتها الطبيعة فيه أن تنمو نموها الكامل وتحقق رسالتها هنا على ظهر الأرض • ومثل هذا التبرير لعمل الطبيعة — أو بالأحرى للعناية — ليس دافعا عديم الأهمية لاختيار وجهة نظر خاصة فى تأمل العالم • اذ ما قيمة اطراء جلال الخلق وحكمته فى مملكة الطبيعة غير العاقلة ، والتوصية بتأملها ، اذا كان جزء المسرح الأكبر للحكمة العليا ، الذى ينطوى على الغاية من كل هذه (الكائنات غير العاقلة) — وأعنى به تاريخ النوع الانسانى — سيظل اعتراضا دائما على هذا ، يحوجنا النظر اليه الى صرف عيوننا عنه رغم ارادتنا ؛ وبينما نيأس نهائيا من أن نجد فيه غاية عاقلة كاملة ، نراه يدفعنا الى أن ننشدها فى عالم آخر ؟

لكن سيساء فهم غرضى اذا اعتقد أحد أننى بهذه الفكرة عن تاريخ العالم على أساس أن له دليـلا قبليا أريد أن أحرف النظر عن ايجـاد التـأريخ[1] بالمعنى المحدود وهو القائم على أساس تجريبى • انما هى فكرة عما عسى أن يحاوله عقل فلسفى (يجب أيضا أن يكون موفور العلم بالتاريخ جدا) من وجهة نظر أخرى • وفضلا عن هذا يجب على التكلف

(١) هنا يستعمل كنت كلمة **Historie** بمعنى علم التأريخ ، فى مقابل **Geschichte** أى التاريخ أعنى مجرى الأحداث فى الزمان ؛ وهذه تفرقة سيكون لها خطرها فى فلسفة التـاريخ عند الفلاسفة طوال القرن التاسع عشر حتى عصرنا هذا فى الفلسفة الوجودية عند هيدجر ويسبرز راجع فى ذلك كتابنا « اشبنجلر » ص٥٤ — ص٥٦ ط ١ القاهرة سنة ١٩٤١ •

الممدوح الذى يلجأ اليه الناس الآن فى كتابة التاريخ أن يضع موضع الاعتبار بطريقة طبيعية هذا الأمر : ألا وهو كيف أن أخلافنا سيعرفون كيف ينظرون الى عبء التاريخ الذى نود أن نخلفه لهم بعد عدة قرون • وليس من شك فى أنهم لن ينظروا الى تاريخ أقدم العصور ، الذى لابد أن تكون وثائقه قد فقدت لديهم منذ عهد طويل ، الا من وجهة النظر التى تهمهم ، وهى ما فعله الشعوب والحكومات فى سبيل النزعة العالمية أو ما عساهم أقاموه من عقبات • والى جانب هذا ، فلعل من بين البواعث الضئيلة على محاولة مثل هذا التاريخ الفلسفى أن يحسب حساب الرغبة فى النباهة والشرف سواء عند سادات الدول وعند عبيدها وخدامها ، كيما توجه الوجهة الوحيدة التى من شأنها أن تبلغ ذكراهم الماجدة الى مسامع الأجيال المتأخرة •

ترجمه عن الألمانية
عبد الرحمن بدوى

تعليق على هذا النص

للفيلسوف الانجليزى كولنجوود فى كتابه « نظرية التاريخ »

R.G. Collingwood: "The Idea of History," Oxford 1946, p.p. 93-104

كان الفيلسوف كنت قد جاوز الستين من عمره عندما قرأ القسم الأول من بحث فى التاريخ وفلسفته نشره تلميذه هردر فى سنة ١٧٨٤ وقد حملته هذه القراءة على أن يعمل هو فكره فى الموضوع نفسه وفيما يتصل به من مسائل • ثم جمع خلاصة التفكير فى النص الذى ترجمه الدكتور عبد الرحمن بدوى للغة العربية فى هذه المجلة • ويرجع تاريخ نشر الأصل الى سنة ١٧٨٤ •

واننا نعلم أن كنت لم يعن يوما من الأيام بالدراسات التاريخية عناية خاصة ، ولكننا نعلم أيضا أنه ما وجه فكره لموضوع ما الا واستطاع أن ينظم أصوله وفروعه . فى نتاج مرتب قيم . وهكذا نجده يستخرج من فلتير ومن روسو ومن هردر أفكارا نماها فى هذه (النظرة فى التاريخ العام بالمعنى العالمى » •

وأول مسألة يثيرها كنت هى التميز بين الأفعال الانسانية فى ذاتها والأفعال الانسانية كما تظهر لمن ينظر اليها • انها ، فى الحالة الأولى ، أفعال تصدر عن ارادات حرة ، ولكنها فى الحالة الثانية ، تجرى بمقتضى قوانين طبيعية ، وعلاقاتها بتلك القوانين علاقات النتائج بمسبباتها • ونظرا لأن التاريخ يتـولى سرد رواية الأفعال الانسانية وأن موقف المؤرخ من تلك الأفعـال موقف الناظر الذى لا يرى الأشياء الا فى ظواهرها فقد تعين عليه أن يعتبر أن الأفعال تخضع لقوانين الطبيعة •

واذ تقرر هذا ، علينا أن نسأل أنفسنا عن ماهية تلك القوانين . أهى من وضع الحكمة لهداية البشرية ؟ قطعا لا . فالتاريخ — على ما نراه فى الواقع — سجل الحماقة والغرور والشر . وان كان هناك تقدم مافى أحوال الانسان فالمحقق أن ذلك التقدم لا يرجع لخطة وضعها فعل الانسان .

وعلينا ان أردنا أن نزيد فى عرض رأى «كنت» فى هذه المسألة بالذات أن نرجع لغير هذا النص من مؤلفاته . اننا ان فعلنا ذلك نجد ان كنت أن النظرية « هل للطبيعة غاية » ليست مما يمكن اثباته أو نفيه علميا ولكنه يرى أنها مما يجب اتخاذه وسيلة لفهم الطبيعة .

وخطط الطبيعة للمؤرخ هى كقوانين الطبيعة لرجل العلم . وعندما يصف رجل العلم نفسه بأنه يبحث عن الكشف عن قوانين الطبيعة فانه لا يقصد بهذا الوصف انه يعتقد أن هناك شارعا منهمكا فى وضع القوانين اسمه الطبيعة ولكن كل ما يريد أن يقول هو أن الظواهر الطبيعية لهامن التكرار والاطراد المنتظم ما يقتضى منه أن يصفها بلغة المجاز . وكذلك المؤرخ عندما يتحدث عن خطط طبيعية تتجلى مراحلها وأدوارها المتعاقبة فى التاريخ لا يقصد أن هناك عقلا اسمه الطبيعة وضع خططا تنفذ فى التاريخ ولكنه يريد أن يقول أن التاريخ يجرى كما لو كان هناك عقل من هذا النوع .

وهذا الرأى أساسى فى فلسفة «كنت» وفى فلسفة القرن الثامن عشر عموما . وانا نعلم أن تلك الفلسفة خلطت العقل بالطبيعة . وقد حاول كنت أن يتغلب على هذا بالتميز (الذى اقتبسه من ليبنتز) بين الأشياء ذاتها ومظاهر الأشياء ، فهى فى ظواهرها طبيعة وفى بواطنها — اذا استطعنا أن ننفذ إليها — عقل . وهذا — فى نظر الناقد — لا يكفى لتبرير وجهة نظر أساءت الى العلم والى التاريخ . فأما اساءتها الى العلم فلأنها تنطوى على أن الظواهر الطبيعية التى يدرسها رجل العلم ماهى الا حجاب يخفى حقيقة روحية مماثلة لنا . وأما اساءتها للتاريخ فلأنها تجعل من المؤرخ مجرد رجل ناظر الى الحوادث التى يصف ، كما لو كانت تلك

الحوادث تمر أمامه تباعا . وهذا غير صحيح وهو أيضا غير ممكن . فحوادث التاريخ لاتتتابع فى مواكب أمام المؤرخين . وهى لاتفعل هذا لأن حدوثها يتم قبل أن يفكر مؤرخ فيها . وبناء على هذا فهو لايستعرضها بل يعيد خلقها فى فكره . ونقول اذن أن فلاسفة القرن الثامن عشر أساءوا فهم التاريخ عند ما أنزلوه منزلة الطبيعة وأخضعوا تطوره أحيانا لقوانين الجغرافيا والمناخ كما فعل منتسكييه ولقوانين البيولوجيا كما فعل هردر .

بيد أن كنت تقدم خطوات نحو نفى أوهام القرن الثامن عشر ، وذلك أنه لم يدرس العقل فى ظواهره كما لوكان طبيعة بل انه درسه فى ذاته وأنه عرف جوهر العقل بأنه « الحرية » . والحرية عنده تتعدى مجرد حرية الاختيار بحيث تصبح حكم النفس بالنفس . وعلى هذا فالانسانية كما تظهر فى التاريخ تسير نحو أن تكون عقلا تماما أى أن تكون حرة تماما .

وبيان ذلك أنه لما كانت غاية الطبيعة من خلق أى شىء هى أن يكون ، ولما كان العقل هو جوهر الانسان فغاية الطبيعة من خلق الانسان هى أن يكون عقلا . غير أن لما كان من خواص العقل ألا يكمل فى حياة فرد واحد فان الطبيعة لاتستطيع أن تستوفى غايتها من خلق الانسان الا على تعاقب الأجيال الانسانية أو — بعبارة أخرى — لابد للانسانية لتصل للغاية من أن تندرج فى تطور تاريخى .

وقد استطاع كنت أن يتصور أن من بنى الانسان من لم يندرج فى هذا التطور أبدا ، وتصورهم على حال من السعادة . فهم بلا تاريخ أو خارج التاريخ .

ويهمنا أمر الآخرين الذين احتواهم ، كيف خرجوا من اللاتاريخ الى التاريخ ، من الركود الهنىء الى التطور المنهك . الى التقدم ؟

لقد قال الحكماء الأقدمون ان التقدم حدث ويحدث استجابة لدواعى الفضيلة أو الحكمة .

وقال رجال الدين ان عناية الله بالانسان رفعته من حال الى حال .

وقال كنت ان الطبيعة استغلت مافى الانسان من شهوات واثرة وجهل لتدفعه نحو اكتشاف وسائل التقدم . فهو فى هذا من أهل التشاؤم ، وهو أقرب الى فولتير فى كانديد منه الى ليبنتز .

ولا ينبغى أن يهولنا هذا التشاؤم كثيرا ، فقد كاد ألا يكون الا مجرد أسلوب خطابى عند الأدباء . وبقدر ماكان كنت متشائما عند كلامه على ماضى الانسانية بقدر ماكان متفائلا عند نظره فى مستقبلها !

وقد رسم كنت فى نهاية مقاله مشروع « تاريخ عام » يرمى الى بيان تطور الانسانية نحو العقل والحرية . واشترط فى من يتولاه أن يجمع بين علم المؤرخ وعقل الفيلسوف .

وقال ان المشروع ممكن التحقيق ، ولكن يجب فى من يقوم به ألايكتفى بسرد الوقائع بل عليه أن يسبر غورها وينفذ الى بواطنها . واشترط ألا بد من قيام المشروع على وحدة مستمدة من فكرة أى ينبغى أن يظهر التاريخ تطور شىء ما نحو غايته . وقد عرفنا — فيما سبق — أن كنت حدد هذا التطور بأنه تقدم من لاعقل نحو العقل والحرية وان وسائل التطور كانت الشهوات والاثرة والجهل .

وقد علق كولنجوود على المشروع عموما بأن كنت بالغ نوعا ما فى اظهار مابين الأشياء من تضاد . ثم حدد نقده فى رؤوس المسائل الآتية :

١ — التاريخ العام والتاريخ الخاص :

يرى كولنجوود أننا اذا فهمنا من كلمة التاريخ العام تاريخا يتضمن كل شىء فهذا مستحيل ، واذا فهمنا من كلمة الخاص دراسة تفصيلات لاتقوم على وحدة مستمدة من فكرة عامة فليس هذا بتاريخ .

والواقع أن « التاريخ العام » ماهو الا مايفهمه المؤرخ من التاريخ وان « الخاص » ماهو الا التاريخ عند ما يتناول تفصيل شىء ما .

٢ — الفكر التاريخى والفكر الفلسفى :

ولا يرى كولنجوود أى تضاد بينهما . فنفى أنه يمكن أن يكون هناك

فكر تاريخى لايعمل الا فى ظاهر الحوادث وآخر فلسفى لايهمه الا بواطنها. فالفكر التاريخى الوحيد الجدير بهذا الوصف هو الفكر الفلسفى •

٣ — لنا أن نقول ان التاريخ تطور أو تقدم نحو شىء • ولكن أن نسمى ذلك التقدم « خطة » وضعتها الطبيعة استخدام فى الواقع للغة الميثولوجيا •

٤ — ان خاتمة المطاف لذلك التقدم ليست فى الاستقبال بل فى الحال •

فالتاريخ ينتهى دائما فى حال ، وواجب المؤرخ أن يفسر كيف حل ذلك الحال •

٥ — ان ذلك الشىء الذى يتطور نحوه التاريخ هو حقيقة اكتمال العقل ، ولكن ذلك لا يفيد أبدا زوال « عدم العقل » .

٦ — ان الشهوات والاثرة والجهل • كل شىء من هذه الأشياء حقيقة قام بنصيبه فى التطور التاريخى ، ولكنها لم تعمل يوما ما منفردة ؛ أو غير مختلطة بفضيلة من الفضائل . وان المتأمل فى أحوال الانسانية ليحس بأن ارادة الخير (وان كانت متخبطة) والحكمة (وان كانت منخدعة) لايقل شأنهما فى تاريخ الانسانية عن شأن الشهوات والاثرة والجهل •

(لخص هذا التعليق ونقله للغة العربية محمد شفيق غربال)